القسم السابع

الاعتداء على الجزائر

« ياويلاه إن المصائب والنكبات وامتحان الدهر ليست وحدها العائق الذى يعترضنا فى الحياة بل إن أعمالنا وجهودنا [1] نفسها كثيراً ما تكون حربا علينا »

« فاوست »

ليذكر العرب جميعاً والعالم الاسلامى وسائر أمم الأرض أن فرنسا اعتدت بلا مبرر بل يسبق إصرار وتربص على حرية الأمة الجزائرية وكان ذلك بغير إعلان حرب ، ولا اخطار للدولة صاحبة السيادة ، وإنما جمعت وحشدت الجنود وأنزلتها فى يوم ١٩ يونيه سنة ١٨٣٠ عند الصباح فى مرسى سيدى فريج حيث انسحبت قوات والى الجزائر من البرج القائم ، حقنا للدماء وإثباتا للتعدى أمام طوفان الفرق ، التى جاءت من فرنسا بمدافعها وعتادها الحربى. هذا اليوم يجب أن يبقى خالداً فى ذكريات كل فرد منا مهما كانت

---

(١) يرجع ضعف الامم الاسلامية الى فقدان الرجال والساسة ذوى البصيرة النافذة والاخلاص الدائم .

ثقافته ، ومهما كانت آماله . ولأهل الجزائر أن يرفعوا أيديهم بالاحتجاج على هذا العدوان ، وإن تنصت السموات العلا اليهم ، وتستمتع الأرض ومن عليها لشكواهم وآلامهم .

وليتخذ أبناء العروبة هذا يوم حداد . يقفون دقائق معدودة تحية المجاهدين والمقاتلين ، الذين جادوا بأرواحهم ، دفاعا عن حريات الأمة الجزائرية ، فى كفاحها الطويل وجهادها ، وليبق هذا اليوم الأسود قائماً بيننا حتى يصفح الله عن شعبه وأرضه ، ويرد إليهم حقه وإلى أن تعود الحياد والنور إلى الشعب الجزائرى على الثرى الذى حمل امجاده والذى هو له وحده .

كان هذا الاحتلال نكبة كبرى على العروبة والإسلام ، لا للحوادث التى تمخض عنها من ضياع إستقلال تونس ومراكش ، ولا لحوادث الكفاح والقتال والتصادم التى دامت سنوات عديدة ، ولا لما أثاره من المعارك والمقاتل والأيام المشهورة وإنما كان محنة إزاء ما تبينه العالم من صمت المسلمين وجهودهم وتفرق كلمتهم . لقد كشفنا هذا العدوان الفرنسى أمام الدنيا وشعوبها ، كنا قوة تخشاها أحداث الزمن ، فاذا نحن لا شىء . كان العالم يحسب ألف حساب للروح التى تفيض حماسة وقوة ورفعة . تلك الروح التى أفرغتها تعاليم الإسلام على الأفراد والجماعات والشعوب ، فإذا هذه الروح

لا وجود لها إنها قد ماتت ولم يعد لها بقاء ولم تقم لها قائمة ، ولهذا حمل أهل الجزائر عبء القتال وحدهم وكان عبئاً ثقيلا عليهم . حقاً إنهم ماوهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ولكن للطاقة البشرية حدا ، إنهم دافعوا دفاع المستميت حتى ألقوا فى النهاية أسلحتهم .

هذه ناحية جديدة بالبحث والتحقيق . نقول : ماذا دهى العالم الاسلامى وأهله ؟ ماذا أصاب هذه الشعوب التى عهدناها فى التاريخ زاحفة على الأخطار تتلقاها بصدور ملأها الايمان — لا تلين يوم ترجف الراجفة ولا تخضع ولا تستأمن وانما تقوم للاحداث وتقعد؟ أين ذهبت تلك الحيوية التى كانت تتبع الرادفة بالرادفة ، وتهز بعزائم أهلها الدنيا وتواجه بصدور اهلها طوفان الحوادث ، فتعلو عليه ، والنصر من كل جانب يواتيها .

ولقد افتتحت هذا الفصل بجملة من فاوست ، قالها جوته الشاعر الالمانى ، وهى تلخص حال المسلمين فى افتتاح القرن الماضى إذ كانت قد خفتت منذ سنوات وقرون أصوات المعارك الزاحفة وانهدت صروح الممالك القويه ، وتفككت عرا الدنيا الاسلامية حينما اطلت طلائع القرن التاسع عشر علينا ، فأصبحت المدن التى كانت عامرة أنقاضا ، وهبط عدد المسلمين فى مصر وفارس وسوريا

والمغرب ، وضعف شأن المسلمين فى كل جانب ، ومنذ ابتداء القرن الثامن عشر لم يبق لهم إلا دولة آل عثمان ، التى وصلت جحافلها الى فينا مرتين ، ثم إذا هى تواجه الهجمات المتتالية فى جبهة البلقان والمجر ، وتدافع ببطولة واستماته فمن كان بوسعه أن يخترق حجب الغيب قبل وقوع هذا الحدث الاعظم بثلاثه قرون ، ويجاهر المسلمين بأن مصائب القرن التاسع عشر وارزاءه كانت نتيجة للأخطاء ، التى ارتكبها أسلافهم بحروبهم وسياستهم وتفرق كلمتهم .

لم يبق من شك أن الحروب التى شنها سليم الأول على مصر وايران أضعفت الكيان الاسلامى ، كقوة فعالة ، ولا سيما إذا حللنا على ضوء المنطق الاسباب التى دفعته اليها ، فقد كانت مشاكله مع الدولتين من الأمور التى كان بوسعه حسمها ، دون أن يتورط فى معارك مع دول اسلامية هى بطبيعتها حليفة له ، فكان من أثر خروبه ان زالت من الوجود دولة مصر ، التى كسبت الحروب الصليبية فى مواجهة أوروبا ، وناهيك بذلك مفخرة لها .

إن الضربة التى وجهت إلى مصر فى سنة ٩٢٣ هـ كانت ضربة ضد العروبة والاسلام ، إذ كان من أثرها أن انهار ركن من دعائم دنيا المسلمين ، كان له المقام الأول فى الدفاع عن أراضيهم وصد أعدائهم ، وسرعان ماظهرت للعيان فداحة هذا الرزء حينما لم يمض

نصف قرن حتى أعقب ذلك هبوط سريع فى عدد السكان، ونقص فى العمران الذى كان قائما بأراضى مصر والشام . بل إن أثر الفتح العثمانى كان شديداً حتى على الحركة العلمية والأدبية التى كانت سائدة بمدارس القاهرة ، ودمشق ، فلم نعد نسمع بمصر عن رجال من أمثال ابن خلدون والسيوطى والمقريزى وغيرهم من أئمة الدين والفقه والشريعة . ثم انظر إلى أثر هذا العدوان ضد بلاد الاسلام فى العقلية الأوربية نفسها . فهذه جمهورية البندقية استمرت فى علاقات حسنة مع مملكة مصر طول القرون الوسطى ، وإنك إذا ذهبت إلى هذه المدينة وزرت قصر الدرجات تجد فى إحدى قاعات العرش رسما كبيرا يمثل سفراء ايران ، بين يدى عاهل البندقية . إن هذه الصورة توحى بأشياء كثيرة ، فان هذه الجمهورية بعد زوال مصر أخذت تبحث عن حلفاء لها من بين المسلمين .

والمعروف أن دوق البندقية كان عدوا للأتراك العثمانيين ، فهو يضع فى مواجهة العالم اعتزازه بتحالفه مع أعداء الدول العثمانية من المسلمين ، وليس أبلغ للدلالة على تفرق كلمة المسلمين وتشاحنهم بعد حروب سليم الأول من هذه الصورة القائمة حتى اليوم درسا وعبرة لمن يريد أن يعتبر .

وما يقال عن إيران ينصب على سلطنة مراكش ، فهى قد

عاشت اكثر من ثلاثة قرون فى شبه عزلة تامة ، نتيجة للسياسة العامة التى وضعها سليم والتى أراد أن يفرض بها سيادة الخاقان الأعظم على بلاد المسلمين وممالكهم ، وهى سياسة لم تكن تسمح بإيجاد علاقات واضحة صريحة مع دولة مراكش المستقلة ، ولم يكن من نتيجتها سوى توالى المحن والنكبات وتحضير الظروف وتوطئة الأحوال الملائمة لذلك الهجوم الفرنسى ، الذى تمثل فى الاعتداء على القطر الجزائرى الشهيد .

قارن هذه السياسة المبنية على الدعوة إلى السيطرة العامة والخضوع لسلطان الخلافة مع المرونة التى أظهرها ملوك مصر ، ابتداء من من الملك الظاهر بيبرس مع خانات التتار والقبيلة الذهبية وأصحاب عروش القفجاق فى روسيا تجد أنهم نقلوا هذه البلاد من الوثنية إلى الإسلام .

أما السياسة العثمانية فلم تنجح ، مع أنها كانت قريبة منهم ، لأنها جاءت لملوك هذه البقاع ، وفضلت فرض نوع من الوحدة والسيادة عليهم ، وكان هؤلاء فى عنفوان قوتهم ، فرفضوا الاذعان لسلاطين آل عثمان ، وكانت دولة الخلافة فى إبان مجدها وفتوتها فتمسكت بسياستها . وبعد قرنين ضعف الجانبان ، ودخل خانات القرم طوعا تحت كنف السلطان الأعظم ، فإذا هو عاجز من

حمايتهم ، وإذا بالقوى تتجمع ضد الدوله العثمانية وكان أول من جاهر بالعصيان جماعات القوازق ، الذين خضعوا لها ، واستأسد حكام موسكو ، فأصبحوا بعد ضعفهم وخضوعهم لملوك المسلمين اباطرة وقياصرة . وكانت قلاع العثمانيين على نهر الدنيبر فى شمالى رومانيا وفى وسط بلاد المجر كافية لصد جموع أوروبا مجتمعة ، ولكن ماذا تفعل الجحافل العثمانية وقد امتدت الجبهة شرقا . وظهر عدو جديد هو روسيا التى أخذت تكتسح الامارات الإسلامية حتى وصلت إلى شواطىء البحر الأسود ، الذى عرفته القرون بحيرة إسلامية .

لقد ظهرت للعيان أخطاء قرنين من الزمن لأن حلفاء الدولة العثمانية الطبيعيين هم سكان الفولجا المسلمين وأمراء القرم ، وهم الذين كان بوسعهم دفع الشر إبان قوتهم ، وكان المنطق والعدل والأخوة تملى بتقوية هذه الامارات وتشجيعها ، بدلا من مناوأتها ، فإذا هى أول ضحايا الزحف المسكوبى وإذا بالجبهة العثمانية تنهار بسرعة ، وإذا بمجهود السلطنة والخلافة ينصرف من يوم حصار فينا إلى عهد حملة نابليون ١٨١٢ فى صد الهجمات المضادة التى شنتها أوربا فإذا وفقت فى صدها عالجها الدب الروسى الأسيوى ، مستعينا بمن كانوا حلفاءها . لقد كانت محنة كبرى ولكنها من صنع أيدينا قبل أن تكون من عمل أعدائنا ، فالويل لنا إذا تكررت مرة أخرى .

فهل كان من حرج على سلاطين آل عثمان لو اتبعوا أساليب وسياسة سلاطين القاهرة فى علاقتهم مع مسلمى الفولجا والقرم، لقد أثبتت الأيام أن ملوك مصر كانوا أبعد نظراً، وأكثر انتباها.

ولذلك لم تكسب الدولة العثمانية كثيرا فى سياستها الإسلامية وجاء اتساع رقعة أراضيها فلم يمكنها من أن تصير دولة متماسكة قوية ومع خدماتها الجلى للإسلام جاء وقت كانت هى وحدها الدولة الإسلامية التى تتلقى الصدمات التى يوجهها أعداء الإسلام وخصومه إلى أممه . وفى غمرات هذه الحالة جاءت حملة فرنسا على القطر الجزائرى ، فإذا القوى مبعثرة ، والأيدى مغلولة ، وأراضى المسلمين الشاسعة خالية من السكان .

نذكر هذا ونكرره إزاء الصيحات التى نسمعها نحو الوحدة ، وتأليف دولة موحدة إسلامية . ونحن نبادر إلى القول بأن المتناقضات التى أورثتها لنا الأطماع والحزازات ، والعقد النفسية فلنحذر من الوقوع فى أخطاء السلف لأن هذه الأخطاء قد تكون أكثر وبالا علينا من المصائب والنكبات التى يسببها الأعداء لنا .

وكلمة هادئة نسوقها هنا هى : أننا من دعاة حرية الشعوب الإسلامية . ولكن مع الإسراع فى الأخذ بمدنية القرن العشرين ، ومع العمل على نقل الشعوب إلى وعى قومى صحيح ، مبنى على العلم

والنور وفهم الحقائق والتثبت منها ، بحيث لا يمكن التأثير عليها وقيادتها إلى أعمال تحمل من المبدأ جراثيم الفشل ، وتنتهي إلى نكبات[١] ومحن تضعف من شأن المسلمين ، فعلى ضوء تجارب الماضي ودروسه القاسية تبنى وتؤسس دعائم المستقبل فنحن طلاب حرية وتقرير مصير واستقلال ، كل شعب داخل نطاق حدوده القومية والتاريخية ولسنا من أنصار الفكرة العثمانية التي رأينا أثرها بعد ثلاثة قرون ممثلة في ضياع شمال أفريقية ، وإنما ندعو إلى تأسيس علاقات جديدة بين الوحدات العربية والإسلامية تنمو على ضوء التجارب مع الزمن نحو التحالف والتكاتف والتعاون ، حتى يعاد العمران وتنشأ المواصلات ، وتختفي الأنقاض والخرائب وتحطم أغلال الجهل التي أورثتها لنا أجيال ، عشنا فيها تحت كنف الاستعمار والاستعباد .

هذه ناحية هامة أعادتها إلينا ذكرى احتلال الجزائر ، وما لمسناه من خمود أية فكرة عليا للدفاع عن هذا القطر الشهيد ، فلننظر من ناحية أخرى لهذا الحدث الكبير في تاريخنا ، لنعرف الدوافع الكامنة وأثرها .

لقد رأينا جيوش المسلمين تسير لتحرير العالم ، حتى إذا انتهت إلى اسبانيا عبرت جبال البرانس ، ودخلت فرنسا بقيادة عبد الرحمن ابن عبد الله الغافقي في سنة ٧٣٢ ميلادية .

---

(١) كتب هذا قبل نكبة فلسطين .

وكانت انتصاراته سهلة على حكام البلاد فوصل زحفه إلى وادى نهر اللوار ، ولكن فى وسط الوديان الشاسعة بين بلدتى تورو بواتييه حيث المروج الخضراء التقت جموع العرب لأول مرة جموع مع عنصر أوربى مقاتل هم الجرمان ، وعلى رأسهم شارل مارتل ، ودارت رحى معركة قال عنها كتاب أوربا : هى المعركة الفاصلة بين الإسلام وأوروبا المسيحية على زعامة التمدن ؟ .

ولم تكن هذه المعركة بين الإسلام والمسيحية لأن أغلب مقاتلة الجرمان كانوا وثنيين ، ولكن الدعاية والرغبة فى التهويل والتفخيم أسبغت على هذه المعركة ثوباً فضفاضاً ، لأن نتيجتها كانت انسحاب العرب من وسط فرنسا إلى جبال البرانس ، فقالوا هنا التقت أوربا وآسيا . وفى هذه المعركة انهزمت قوى الإسلام ، ومن الغريب أن يذكر بعض المؤرخين أن بين من حارب فى صفوف المسلمين، أمراء مسيحيين .

لقد شاءت الروح الصليبية السائدة فى أوربا أن تجعل من معركة تورو بواتييه ابتداء الهجوم المضاد على المسلمين ، لا فى فرنسا وحدها بل فى إسبانيا ، واستمرت هذه الدعوة قائمة على الكراهية والافناء سائدة لمدة ثمانية قرون ، وهى تلاحق العرب ، حتى صفيت المشكلة الإسلامية فى بحر من الدماء والمذابح فى اسبانيا ، وغادر آخر ملوك غرناطة ساحل الجزيرة الخضراء .

ولقد ظن المسلمون أو خيل إليهم أن نكباتهم قد انتهت ، وأن جحافلهم قد آن لها أن تستريح ، وكانوا فى ذلك من الواهمين لأنه لم تمض ثلاثة قرون حتى لاحقتهم الحروب فى عقر ديارهم ، وقذفت فرنسا — التى حكمها العرب وفتحوا ديارها — بحملة قوامها أربعة وثلاثون ألفاً من خيرة جنودها وأسطول عدته أربعمائة سفينة ومائة وعشرين مدفعاً تجرها الخيل .

ولم تكن هذه أولى الحملات ، بل تقدمتها محاولات أخرى ، لقيت فيها مدينة الجزائر الكثير من عبثهم ، وهدموا أحياء منها ، ويذكر التاريخ مثل هذه الهجمات على مدن السواحل الأفريقية كلها ، حتى مدينة الأسكندرية ، وبيروت ، وسواحل الشام أصيبت فى عهد الدول العثمانية وقبلها بشى من هذا العدوان على أيدى قراصنة الأوربيين .

ومع ضعف المسلمين وتفرق كلمتهم تمكن أهل المدن الساحلية وهم أهل المثاغرة والرباط من رد هذه الحملات إلى البحر والمحافظة على السواحل الإسلامية ، واسترجاع المناطق التى سيطر العدو أحيانا عليها ، ولعل هذه الانتصارات السهله هى التى جعلت أمراء المماليك بمصر يستصغرون شأن حملة نابليون . وجعلت أهل الجزائر يستصغرون شأن الحملة الفرنسية عليهم ، وكانوا فى هذا من المخطئين

فدفعوا الثمن غاليا بهزيمتهم وموتهم ، وأضاعوا البلاد من أيديهم .

وبهذه الحملة انتقلت حلقات الهجوم المضاد لمعارك توروبواتييه إلى الشاطىء العربى ، وبدأت حرب الموت والفناء ، تشنها قوة تعتقد أنها تستعيد مجد روما على الرمال التى حملت أعلام روما القاسية ، وتستوحى فى قتال المسلمين ذكريات الحروب الصليبية ، ومعارك لويس التاسع فى أفريقية . وهكذا شاءت فرنسا أن نعيش نحن معاشر العرب بافريقيه الشمالية فى غمرات الهجوم المضاد ، الذى بدأه الجرمانى شارل مارتل علينا .

ولم يكن هناك مايبرر هذا العدوان فقد تقرأ الكثير مما ذكره المؤرخون عن إهانة الوالى حسين باشا للجنرال دوفال Deval قنصل فرنسا حينما قدم عليه للتهنئة بعيد الفطر سنة ١٢٢٣ هـ ، وما سبق هذا من النزاع على الديون التى ماطلت فرنسا فى دفعها لحكومة الجزائر . والدور الذى لعبه كل من يعقوب كوهين بكرى وميخائيل أبو زناك اليهوديين فى هذه القضية ، وهل ترفع إلى مجلس الجزائر أو إلى محاكم باريس التجارية للفصل فيها ، ثم احتجاج القنصل ومغادرته البلاد ومن معه من التجار الفرنسيين ، وما قيل من أن هذا القنصل تعمد ايجاد هذا الحادث بتوجيه عبارة غير لائقة للوالى حينما طلب إليه إجابة صريحة من حكومته ، فرد عليه أنه ليس من

عادة ملك فرنسا أن يكاتب من هو دونه بغير واسطة ، فأثار بقوله غضب الوالى .

إذ ما الفائدة فى تعرف أسباب العدوان بين القوى والضعيف والنية مبيتة والاستعداد قائم ، ولم يكن إختيار الجنرال ليراس القنصلية وهو عسكرى إلا توطئة وتحضيراً للاعمال الحربية القادمة .

ووقعت الواقعة فى التاسع عشر من يونيه سنة ١٨٣٠ ، إذ أقدمت فرنسا بغير إعلان حرب ، ولا إخطار للدولة صاحبة السيادة[١] أو إنذار للوالى — وأنزلت عساكرها فى مرسى سيدى فريج ، وهى بقعة خالية من الناس ، لاتحرسها غير قوة صغيرة من الجنود فى برج قائم ، رأت أن تنسحب بغير قتال ، حقناً للدماء أمام طوفان الفرق النازلة من الأسطول بمدافعها وعتادها الحربى .

فلنذكر جيداً هذا اليوم ولا تنسه لأنه يحمل ذكريات العدوان الفرنسى على الأرض الأفريقية على بر الجزائر الشهيد . وبعد مائة عام أى فى ١٩ يونيه سنة ١٩٣٠ احتفلت فرنسا بهذا اليوم ، فأثارت بعملها حمية شرذمة من الجزائريين وإحرارهم ، وخرجوا من ديارهم يجوبون الممالك حتى لايروا بأعينهم فى ديارهم وأوطانهم ذل يوم يحتفل به الغاصب ، ويرفع أعلامه على أنقاض الوطن الجريح ، والشعب الشهيد . فلقيني جماعة منهم بمدينة استانبول ، وذكروا لى

---

(١) الدولة العلية العثمانية .

مشاهد مما يلقونه من عنت ، وماصارت إليه أوطانهم ومرابعهم . وهى البلاد العزيزة التى حملت أعلام المرابطين والموحدين ، وقبائل المسلمين من العرب والبربر ، وكانت لهم السياده والقيادة ، والحول والقوة ، أيام كانت ترتج أمام اجنادهم وعزائمهم جحافل الفرنجة ، وتخشاهم الدنيا .

وجاء منهم فريق إلى مصر فأمضى أياماً ، من غير أن يسمع لهم صوت أو أنين ، ولما جاء الفوج الثانى أرجعهم بوليس مصر وشرطة الموانى ، بحجة أن مصر لم تكن مذكورة على جوازات سفرهم[1] . وضحكت من الأيام التى جعلت بوليسنا حريصاً على تنفيذ تعليمات حكومة الإستعمار الفرنسية متيقظاً ألا يدخل مصر العربية من هم أقرب الشعوب إلينا ، وألصقهم بنا ، ومن يحملون تأشيرة مصرية قانونية . ولا أدرى من الذى لفت الأنظار اليهم ، ومن حال بينهم وبين مصر ، ومن أعطى التعليمات لاعادتهم ؟

وارتجت مدن الجزائر فى يونيه سنة ١٨٣٠ ، وقامت القائمة فيها والوالى يجمع جنده ويحشدهم ، ويرسل إلى البلاد والأقاليم يدعو للجهاد والدفاع ويطلب النجدة من وهران وقسطنطينية ، وخرجت الجموع لمهاجمة معسكر الفرنسيين ، فاقتحموا المراكز الأمامية أمام تراجع الجنود الفرنسية ، حتى إذا صاروا تحت مرمى المدفعية

---

(١) اى ضمن البلاد المرخص لهم بدخولها .

حصدتهم بنيرانها حصدا ، فاختلت صفوفهم ، واخلوا الأماكن التي احتلوها ، وتعقبهم الفرنسيون ، وكانت هذه أول ملحمة على أرض الجزائر في يوم ٢٥ يونية سنة ١٨٣٠ .

وكانت قوات والي الجزائر محتشدة داخل حصون في ناحية أبي جارية، فخرجت منها للقتال ، والتحمت مرة ثانية مع الفرنسيين. فلم تصبر على النيران وارتدت ، وأخلت هذا المعسكر ، فاحتله العدو ثم تقدموا منه ، واحتلوا بساتين المدينة وأطرافها وبدءوا حصارها

وبعد أيام أخذوا في إطلاق نيران المدفعية ، فأصابت قذائفها برج مولاي الحسن ، وكانت فيه مخازن البارود ، فأصابتها قنبلة ، سببت انفجارا هائلا ، فاندك البرج على من فيه وتطايرت حجارته وتهدمت عدة منازل ، ومات خلق كثير تحت الأنقاض .

وبهذه النائبة اهتزت اركان المدينة ، وفقدت روح المقاومة ، واستولى الرعب والقلق على السكان ، فقرر الوالي تسليم المدينة .

وفي صباح يوم ٦ يولية سنة ١٨٣٠ الموافق ١٣ المحرم سنة ١٢٤٦ دخلت جيوش فرنسا من الباب الجديد ، وأنزلت الأعلام العثمانية من القصبة والأبراج ، ورفعت الرايات الفرنسية ، واحتلت الجنود القصبة والقلاع والشواطىء ، وزالت من الوجود حكومة الجزائر الإسلامية .

وتم العدوان على الأرض التى امضت فرنسا السنين تحلم بوضع اليد عليها، بعد أن فقدت أملاكها فى الهند وأمريكا وجزائر المحيطات ولم يرد فى ذكر شروط الهدنة والتسليم نص على الاحتفاظ بحقوق الأهالى وتقرير مصيرهم سوى النص الاستعمارى الذى وضعه نابليون فى مصر وهو : احترام الديانة المحمدية ، وعدم التعرض لنساء المسلمين .

وهو النص الذى ما انفك دعاة الاستعمار يرددونه فى كتبهم وأبحاثهم وخطبهم دليلا على روح التسامح ، ويقولون ماذا يريد المسلمون وقد تركنا لهم حرية التدين ، وحفظنا لهم أعراضهم ، كأن حياتهم وقف على هذا لا تتعداه ، أو كأنهم أهل آخرة لا تشغلهم أمور الدنيا ، فلا تهمهم العاجلة ، ماداموا قد ضمنوا الآجلة ، وأخذوا بأيديهم مفاتيح الجنان .

ويقول مؤرخو المسلمين : اهتزت لهذه النائبة المشارق والمغارب وكانت من أعظم النوائب ، والحقيقة أن العالم الإسلامى الذى عهدناه يهتز لما يحدث فى ركن منه لم يتحرك لهذه الكارثة ولا لما تلاها من نكبات ، وإنما تحرك القطر الجزائرى وحده ، أمام العدوان ، وقامت قبائله ورجاله يذودون عن حياضهم ، وانضموا تحت لواء الأمير عبد القادر ، يكتبون بدمائهم ملحمة من ملاحم الحروب

القاسية فى تاريخ الإسلام الذى واجه الحقائق ، وقال : لقد تبينت ما قدر على وهأنذا مستعد للاقدام .

ولكن بعد مضى قرن من الزمن يقف أهل الجزائر مرة أخرى للامتحان أمام فرنسا ، ويرددون هذا القول ، لقد عرفوا وتبينوا ما كتبته لهم الأقدار ، فهل هم على عهد الأقدام قائمون ؟

هذا ما ستفسره الأيام .

وسنرى فى القسم التالى ما كان من هذه الواقعة الخالدة .